

هاتمة الأساطير الأوروسية

الصراع الأخير

بين الموريسكيين وإسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(٢)

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكى السخط العميق فمولوا على الثورة مؤثرين الموت على ذلك الاستشهاد المغنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولافى غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة تحشد فى ضاحية « البيازين » ؛ وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان ابن فرج صباغاً بمهنته ، ولكنه حسباً تصفه الرواية القشتالية كان رجلاً جريئاً وافر العزم والخماسة ، يضطرب بغضباً للنصارى ، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم ؛ ولا غرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج وهم من أشرف غرناطة وفرسانها الانجاد أيام الدولة الإسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشراة ، وثيق الصلة بمواطنيه ؛ فالتقى الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم ترحف سراً إلى غرناطة ونجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجئ حامية الحمراء وتسحقها وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر إبريل سنة ١٥٦٨ إذ يشغل النصارى عندئذ باحتفالاتهم وصلواتهم ؛ ولكن أبناء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية فالتحذات التحولات لدرته ، وعززت حامية غرناطة ، وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون أزاء هذه الأبهة أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى

واستمر الموريسكيون على عزمهم واهبتهم ، ووجهوا بعض الكتب خفية إلى أمراء الثغور فى المغرب يطلبون إليهم الغوث والعون ؛ فوقع كتاب منها فى يد حاكم غرناطة ؛ وتقول

وأجلسها بجانبه على السرير : « اسمعى ... أن مثلك لا يجوز أن تعمل كخادمة ،

فقلت باخلاص : « إلى مسرورة ... وجودى هنا خير مما كنت أنتظر ... والآن اسمع لى أن أذهب وأغير الثوب وأرد هذا ،

وأشارت إلى الثوب الذى كساها فقال : « خله لك ... وغيره أيضا ... كل ما فى الخزانة خذيه ،

فقلت : « سيدى ... لم أعتد أن آخذ شيئاً من أحد ، قال وهو ينهض : « أوه ... هذه مسألة يسهل أن نسويها

فيما بعد ... »

وكانت هى قد نهضت أيضا فوقفا متقابلين . وقد يكون الأرج المتضوع فى الغرفة أو غيره هو الذى أدار رأسيهما فقد مال عليها فلم تبعد ، ولثم فيها . وكانت القبة فى أول الأمر خفيفة — لمسألاً أكثر — ولكن الأيدى ارتفعت إلى الأكتاف فكان عناق طويل

وقال جميل بك : « نعيمة ... إنك ساحرة ... كان دائماً يخطر لى أنك لست من الخدم ... ويخيل لى أنك ستبقين هنا ... سيدة ... »

وكان قلب نعيمة يخفق بشدة فنأت عنه قليلاً وهى تفكر فى معنى ما سمعت . ثم قالت : « ولكن الست ؟ قال : « لا تقولى الست كأنك مازلت خادمة ، قالت وهى تضحك : « زوجتك إذن ؟ »

قال : « آه ... نسيت أن أخبرك أننا اتفقنا — أبوها وأنا — على فض الأشكال بالحسنى ... لاحتاحكم ولا شئ ... طلقته اليوم وانتهى الأمر ،

قالت : « الست آسفا ؟ »

قال : « كلا ... كان هذا أحسن حل ... حياتنا مستحيلة ... لاوافق ،

ولأول مرة منذ سنتين شعرت نعيمة أن لها بيتاً ، ونظرت إلى السرير — سريرها الآن ، أو هو سيصبح سريرها بعد العقد ... ثم ردت عينها إلى جميل بك فالتفت الشفاه مرة أخرى فى قبلة معسولة

إبراهيم عبد القادر المازنى

معركة الحياة والموت، وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله، ويكون رمز ملكهم القديم فوق اختيارهم على قتي من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى فالور؛ وكان هذا الاسم النصراني القشتالي يحجب نسبة عربية اسلامية رفيعة ذلك أن فرناندو دى فالور كان ينتمى فى الواقع إلى بنى أمية وكان سليل الملوك والخلفاء الذى سطعت فى ظلمهم الدولة الاسلامية فى الأندلس زهاء ثلاثة قرون، وكان قتي فى العشرين تنوه الدواية القشتالية المعاصرة بوسامة محياه، ونبل طلعه؛ وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التى انتدب لها، ولكنه كان يضطرم حساسة وجرأة وإقداما، فى الحال غادر غرناطة سرا إلى الجبال ولجأ إلى شيعته آل فالور فى قرية بزنانر، فهرعت اليه الوفود والجموع من كل ناحية، واحتفل المورييسكيون بتتويجه فى احتفال بسيط مؤثر، فرشت فيه على الأرض أعلام اسلامية ذات أهلة فصلى عليها الأمير متجها صوب مكة، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزا بالخضوع والطاعة، وأقسم الأمير أن يموت فى سبيل دينه وأهله، وتسمى باسم ملوكى عربى هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة، واختار محمد عمه الملقب بالزغوير، قائدا عاما لجيشه، وقد كان صاحب الفضل الأكبر فى اختياره للرياسة، وبعث ابن فرج على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرات ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس، واتخذ مقامه فى أعماق الجبال فى مواقع منيعة، وبعث رسله فى جميع الأنحاء يدعون المورييسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم

ووقعت نقمة المورييسكيين بادية ذى بدء على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم فى أنحاء البشرات ولا سيما القسس وعمال الحكومة؛ وكان هؤلاء يقيمون فى محلات متفرقة سادة قساة يعاملون المورييسكيين بمتهى الصرامة والزرارية، وكان القسس بالآخص أس بلائهم ومصائبهم؛ ومن ثم فقد كانوا ضحايا الفورة الاولى. وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى فى تلك الأنحاء فزقوهم تمزيقا. وقتلوا القسس وعمال

الرواية القشتالية أنه كان موجها من أحد زعماء البيازين إلى مسلمى الثغور المغربية يستحلهم فيه الغوث بحق روابط الدين الدم ويقول: لقد غمرتنا الهموم، وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة. إن مصائبنا لأعظم من أن نتحمل، ولقد كتبنا إليكم فى ليال تفيض بالعذاب والدمع، وفى قلوبنا قبس من الأمل، إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب، ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين الذين نفذوا سرا إلى إخوانهم فى البشرات، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين الذين كانوا حربا عوانا على الثغور والسفن الأسبانية فى ذلك العصر

وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨، وقع حادث كان نذير الانفجار؛ إذ اعتدى المورييسكيون على بعض المأمورين والقضاة الأسبانيين فى طريقهم إلى غرناطة ووثبت جماعة منهم فى نفس الوقت بشرذمة من الجند كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق وفتكت بهم جميعا. وفى الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ونفذ إلى المدينة ليلا، وحاول تخريب مواطنيه فى البيازين على نصرته ولكنهم أبوا أن يشتركوا فى مثل هذه المغامرة الجنونية وقد كان موقعهم حرجا فى الواقع لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية وهم أعيان الطائفة ولهم فى غرناطة مصالح عظيمة يخشون عايبا من انتقام الأسبان؛ بيد أنهم كانوا من وراء الثورة يؤيدونها برعايتهم ونصحهم وهم فارتد ابن فرج على أعقابهم واجتاز شعب جبل شلير (سييرا نفادا)، إلى الهضاب الجنوبية فيما بين بلش (فيليز) والمرية، فلم تمض بضعة أيام حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى المورييسكية فى أنحاء البشرات، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ووثب المورييسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم ففتكوا بهم ومزقوهم شرمزق

— ٣ —

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء الأندلس ودوت بصيحة الحرب القدعة وأعلن المورييسكيون استقلالهم واستعدوا الخوض

الحكومة، ومثلوا بهم أشنع تمثيل، وكانت حسبما تقول الروايات، القشتالية مذبحة عامة لم ينج منها جنى النساء والأطفال والشيوخ؛ وذاعت أنباء المذبحة الهائلة في غرناطة فوجم لها المورييسكيون والنصارى معا، وكل يخشى عواقبها الوحشية، وكان المورييسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاما لمواطنيهم، وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش المورييسكيين على غرناطة فتسقط المدينة في يدهم وعندئذ يحل بهم النكال الرائع. بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن أمية فتقول أنه لم يحرض على هذه المذابح ولم يوافق عليها، بل لقد ثار لها وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة، فنزل عنها راضياً واندمج في صفوف المجاهدين، وهنا يخفى ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث بعد

— ٤ —

وكانت غرناطة في أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً؛ وكان حاكمها المركز منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى، بيد أنه لم يكن يقدر مدى الانفجار الحقيقي، ففصت غرناطة بالجند، ووضع المورييسكيون أهل البيازين تحت الرقابة رغم احتجاجهم وتوكيدهم بأنهم لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته في ٢ يناير سنة ١٥٦٩ تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تنديلا، وعبر جبل شلير (سيرانفادا) وسار تواراً إلى أعماق البشرات حيث يحشد جيش الثوار؛ وكان محمد بن أمية متحصناً بقواته في آكام بوكيرا الوعرة، وكان المورييسكيون رغم نقص مواردكم وسلاحهم قد حذقوا حرب الجبال ومفاجأتها. فما كاد الأسبان يقتربون منهم حتى انقضوا عليهم، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة، ارتد المورييسكيون على أثرها إلى سهول باترنا، وتحلف كثيرون منهم ولا سيما النساء، فقتل الأسبان بهم فتكا ذريعاً، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو وأن يخلدوا إلى السكينة، وبعث إليهم بعض المسلمين من مواطنيهم، وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم، ولكن المتطرفين من أنصاره ولا سيما المتطوعين المغاربة رفضوا الصلح، فاستؤنفت المعارك، ورجحت كفة الأسبان

وهزم المورييسكيون مرة أخرى، وفر محمد بن أمية وأسرت أمه وزوجه وأخواته؛ وأصيب الأسبان بهزيمة شديدة في آكام بوكيرا، ولكن المورييسكيين أثروا الارتداد؛ وقتل الأسبان من تخلف منهم أشنع قتل، وكان ممن تخلف زعيم باسل يدعى «الزمار» أسره الأسبان مع ابنته الصغيرة وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذب عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً، ثم مزقت أشلاؤه؛ وهكذا كانت أساليب الأسبان ومحاكم التحقيق أزاء العرب المنتصرين

واختفى محمد بن أمية مدى حين في منزل قريبه «ابن عيو»، وكان من انجناد الزعماء أيضاً، وطارده الأسبان دون أن يظفروا به. على أن هذه الهزائم الأولى لم تقل عزم المورييسكيين فقد احتشدوا في شرق البشرات في جموع عظيمة وأخذوا يهددون المريه، فسار إليهم المركز «لوس فيليس» على رأس جيش آخر، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، ومزق المورييسكيون، وقتل الأسبان كعادتهم بالأسرى وقتلوا النساء والأطفال قتلاً ذريعاً

وقعت في نفس الوقت في غرناطة مذبحة مروعة أخرى فقد كان في سجنها العام نحو مائة وحسين من أعيان المورييسكيين اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة فأذاع الأسبان أن المورييسكيين سيهاجمون غرناطة لانقاذ السجناء بمؤازرة مواطنيهم في البيازين؛ وعلى ذلك صدر الأمر باعدام السجناء فانقض عليهم الجند وذبحوهم في مناظر مروعة من السفك الأثيم وكان لهذا الحادث الأخير أثره في اذكاء نار الثورة، وكان نذيراً جديداً للمورييسكيين بأن الموت في ساحة الحرب خير مصير يلقون، فصرى إليهم لبب الثورة بأشد من قبل وطافت بهم صيحة الانتقام فانقضوا على الحاميات الأسبانية المبعثرة في أنحاء البشرات ومزقوها تمزيقاً وهزموا قوة أسبانية تصدرت لقتالهم واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسل؛ وعاد محمود بن أمية ثانية إلى تبوأ عرشه الخطر، والتف حوله المورييسكيون أضعاف ما كانوا، وبعث أخاء عبد الله إلى القسطنطينية يطلب العون من سلطانها، ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة المورييسكيين برغم